المثل الاعلى

إذا أردت أن تشرع فى رحلة الى الاقصر مثلا وضعت لها صورة فى ذهنك تتمثل أمامك وغاية لاجلها تعمل ثم ترسم الخطة العملية لتنفيذ ما عزمت عليه مستمليا من تلك الصورة ما يجعل الرسم موافقا تلك الغاية التى تريدها

وإذا شئت أن تؤلف كتابا فانك تتخيل له صورة عامة من بدئه الى منتهاه وتتمثل أمامك أبوابه وفصوله قبل أن تشرع فى بناء هيكله . كما تحدّ الغاية التى من أجلها تعمله وتتبين جهته العلمية أو الخلقية أو الفنية . بعد كل هذا تشرع فى تنفيذ ما عزمت عليه .

هكذا شأن الانسان فى حياته يجب أن تكون لديه صورة مرسومة وخطة كاملة وغاية واضحة لما يود أن يكون عليه فى حياته المستقبلة . وهذه الغاية هى التى كثيرا ما يعرض للانسان أن يسائل نفسه عنها فيقول ماذا ينبغى أن أكون

هذه الغاية أو تلك الصورة الذهنية هى التى يسميها علماء الاخلاق المحدثون (المثل الاعلى)

بهذا المثل يفترق الانسان عن الحيوان فانه دائم الرقى يجد للوصول الى غاية كلما قرب منها وجد أنها لا تفى بطلبته : وللوصول الى هـذا المثل يجد ويكد . وأعماله فى الحياة تدل عليه

بخلاف الحيوان فانه يعيش على نمط واحد فمعيشته اليوم هى معيشته أيام أطواره الاولى مجموعة غرائز والهامات يسير على سننها فبيوت النمل قديما هي بيوته اليوم بشكلها المسدسى

المثل الاعلى للفرد

أهم العوامل فى تكوين المثل الاعلى للفرد ما يحيط به من صفات موروثة وصفات مكتسبة من المنزل والمدرسة والدين والعادات القومية . فاذن ما يرثه من أبويه من شجاعة أو جبن وهمة أو خمول لها دخل كبير فى تحديد المثل الاعلى له

كما أن ما يتلقنه فى المنزل من الاحاديث التى يسمعها والنظام الذى يسير عليه فى معيشته وما يراه فى المدرسة ويقرؤه

من كتب سير الابطال وعظماء الرجال ومايسمعه من دروس الاساتذة له أكبر الاثر فى ذلك

ولا تنس عامل الدين فى تكوينه بما يحويه من آداب وما يرسمه من أوضاع ينبغي أن نحتذيها فى حياتنا الدنيا لنصل بها الى خير العقبى فى حياتنا الأخرى

وهذا المثل قابل للتجدد والنمو بين حين وآخر كلما جد عامل جديد فسيرة بطل عظيم نقرؤها أو الثناء على عمل جليل نسمعه قد تغيره تغيرا كثيرا

وليس هناك من شك فى أن النشء فى مبدأ حياتهم يميلون الى قراءة قصص الابطال وعجيب الحوادث . مما يساعد على نمو المثل لديهم ويزداد ذلك وضوحا اذا خرجوا الى معترك الحياة وتبادلوا الاخذ والاعطاء . وكلما اتسع نظر الانسان فى الحياة وحصف عقله كمل المثل وتمت أجزاؤه

وبضد هذا قد ينقص المثل ويضيق فالصناع والعمال الذين يألفون نوعا محدودا من العمل ثم هم لا يوسعون مداركهم العقلية يضيق مثلهم وينحصر أملهم وفى هذا من الخطر الشيء

الكثير لأنه يقلل من نشاط العامل ويجعل حكمه غالبا أقرب الى الخطأ منه الى الصواب وبالعكس كلما اتسع المثل بعث فى الانسان نشاطا جديدا وأحب العمل وصار حكمه على الاشياء أقرب الى الصواب . اذ نقد العمل وتحسينه أو تقبيحه يكون بمقياس ماعنده من مثل

المثل الاعلى للمجموع

يتأثر المثل الاعلى للمجموع بعوامل مختلفة فيتأثر بسعة المدارك وضيقها فالمثل الاعلى الذى يتصوره المجموع فى بلاد متأخرة لايكون مماثلا لما يريد أن يحتذيه المجموع فى بلاد متحضرة فكلما رقيت الامة تغير فيها المثل الاعلى للجماعة واعتبر ذلك بما تراه من شاسع البون فيما يود شعب متأخر أن تكون عليه حال حكومته وسُبُل نظمها وأوضاعها بينما ترى أن هذا المثل لايرتضيه بحال شعب أرقى مدنية وأعرق حضارة

كما يتغير أيضا بالعرف والعادة فان لهما سلطانا

كبيرا فيما تريد الجماعة أن تجعله نبراسا لها فى حياتها العملية: والعامل الدينى ليس أقل شأنا مما تقدم فى اختلاف المثل للامم والشعوب

الحقوق والواجبات

يفرق علماء الاخلاق بين الحق والواجب فيقولون

(١) كل شئ لا يصح لغيرك أن يعترضك اذا تصرفت فيه فهو حق

(٢) كل شئ يجب عليك أن تعمله فهو واجب

وهما لا يفترقان بل هما متلازمان إذ كل حق يلزمه واجب بل واجبات ألا ترى أن من يملك حصانا فله حق ركوبه والانتفاع به بكل الطرق الممكنة وعلى الناس ألا يتعدوا عليه فيسرقوه أو يغصبوه أو يمنعوه من ركوبه . فان حصل ذلك كان للقانون حق التدخل وحماية هذا الحق برد الحصان أو تعويضه من منع الاستعمال . كما أن على المالك الا يسئ استعمال حقه بل عليه أن يجعل فيه منفعة للناس فان لم يفعل ذلك

لم يكن للقانون حق التدخل ولكن تحثه الاخلاق وتقول ليس لك أن تتصرف فى ملكك الا فيما يفيد غيرك

أهم الحقوق

الحقوق قسمان (١) حقوق طبعية مُنحها الانسان بمقتضى الفطرة لا القانون كحق الحياة مثلا أو حق الحرية أو حق الملك وحق التربّى

(٢) حق خوله إياه القانون كحق الشفعة فيما بجواره من ملك غيره اذا بيع . وحق الانتفاع بالمرهون على بعض الآراء

حق الحرية

الحرية أن تعمل ماتريد على شريطة ألا تضر غيرك ولها أنواع كثيرة أهمها مايلى :

(١) الحرية مقابل الاسترقاق فيقال هذا حر وذاك رقيق . وقد ألغت الامم المتمدينة الرق لانه سلب لحق طبعى

لكل انسان . ولأنه لايستطيع الشخص أن يقرر شؤونه بنفسه الا اذا كان حرا

(٢) حرية الامم. ويُعنى بها ألا تخضع الامة لحكم الاجنبى بل تكون مستقلة فى جميع مرافق حياتها . وهذا حق تحن اليه الامة كما يحن الفرد ويود أن يكون سيد نفسه . ولا تحس الامة بما لها من كيان خاص ولا تنهض وتجد فى نيل كمالها الا اذا كانت تدير شؤونها وحدها

(٣) الحرية المدنية . وهى أن يأمن الشخص من تعدى غيره عليه أو على ملكه قوة واقتدارا . ويدخل فيها (ا) حرية الرأى فيكون لكل شخص حق الحكم على الاشياء بحسب مايعتقد وان خالف رأى غيره ثم ينجلى بعدئذ الحق ويتغلب على الباطل (ب) حرية الاجتماع والخطابة الا اذا أدى ذلك الى الضرر بالمصلحة العامة (ج) حرية الصحافة بحيث لا تتقيد بشىء الا بالقانون العام اذ الصحافة حلقة الاتصال بين الحاكمين والمحكومين فيستفيد الطرفان بما فيها من الآراء

(٤) الحرية السياسية . وبها يكون للانسان الحق فى أن

أخذ قسطا فى حكومة بلاده بالتصويت والانتخاب. وحينئذ يكون ممثلوهم أصحاب التشريع فيها . وبدون هذا لا يأمنون من استبداد فرد أو أفراد بهم يشرعون لهم كما شاءت أهواؤهم

من الملك

حق الملكية جزء متمم لحق الحرية اذ لا يستطيع الانسان أن يرقى الا اذا ملك الوسائل والآلات التى توصله الى ذلك . والداعى اليه أن للناس رغبات شتى وما يوجد على ظهر البسيطة لا يكفي لسد هذه الرغبات فيسارع كل الى الحصول على ما يمكنه منها وتتزاحم الرغبات ومن هنا نشأ الملك ووجب على الناس احترام هـذا الحق بعدم التعدى بسرقته أو غصبه ووجب عليه أن يستعمله أحسن استعمال

الملك قسمان (١) خاص كأن تملك بستانا أو سيارة

(٢) عام (ملك الحكومة) كدار الآثار والسكة الحديدية

والاول أدعى الى العناية به وعدم التبذير فيه. الا ترى أن من الخير أن تكون ملابسك ملكا لك حتى تعنى بها حق العناية

والثانى أنفى للاحتكار واستبداد فرد أو أفراد به فلو كانت دار الكتب ملكا لبعض الناس لفرضوا من فادح الاتاوات مايثقل على الكثير حمله

هو التربية

التربى مظهر من مظاهر الحرية فلكل إنسان حق أن يتمتع به بقدر استعداده وكفاءته . فكلنا عليم بان الجهل اذا فشا فى أمة أثر فى جميع مرافقها اقتصاديا وصحيا واجتماعيا وسياسيا الا تراك تجد المتعلم يستطيع أن يكوّن اساليب معيشته وينظم حياته على سنن لا يمكن الجاهل أن يجاريه فيها وهو أيضا يقدر على الكسب بطرق شتى لا تدخل في مقدور الجاهل وعكس هذا اذا انتشر الجهل فى أمة كثر فيها الفقر والشر والاجرام

ومن ثم نجد المرأة المتعلمة تنظم بيتها وتدير مختلف شئونه وتربى أولادها صحيا وخلقيا بحالة لا تقدر الجاهلة أن تفعل مثلها

ويجب على حكومة كل شعب أن تهيء الوسائل وتعد

العدة التى بها يستطيع كل فرد أن يأخذ قسطا من التربيـة فيكون عضوا عاملا فى المجتمع يعلم ماله من حقوق وعليـه من واجبات وللوصول الى ذلك جعل كثير من الحـكومات التعليم الابتدائى جبريا مجانيا وأعد المعلمين الاكفاء للقيام بهذه المهمة الشاقة وساعدها على ذلك أهل البر والخـير بتبرعاتهم المختلفة لنشر العلم

الواجب

الواجب هو عمل خلقى يحث على فعله الوجدان والضمير. وطورا يقسم الى

(ا) واجب على الشخص لنفسه كعدم إجهاد النفس فى العمل وكالقناعة

(ب) واجب اجتماعى كالاحسان الى البائسين والعدل فى الحـكم

(جـ) واجب لله باتباع الاوامر وترك النواهي

وفى الحقيقة نرى أن هذه الاقسام قد يتدخل بعضها

فى بعض فالنظافة مثلا واجب شخصى يفيد البدن صحة وواجب اجتماعى من حيث ان صحة الشخص تؤثر فى المجتمع وواجب إلهى لانها اتباع لما أمر به الله

وتارة يقسمونه الى

(١) واجبات معينة محدودة يكلف بها الناس جميعا بلا تفرقة ولا تميز وعليها يتوقف بقاء نظام المجتمع ومن ثم توضع لها أحكام فى قانون الامة وتحث عليها الاخلاق كعدم التعدى على النفس أو المال

(٢) واجبات غير معينة ولا محدودة ولا يمكن وضعها فى قانون كالاحسان الى بنى الوطن أو الى الناس جميعا ألا ترى ان هذا يختلف بحسب الزمان والمكان والحال الداعية وعلى هذا النوع يتوقف رقى المجتمعات ورفاهيتها

ومن البين ان الواجبات تختلف بحسب الثروات من فقر وغنى وبحسب العمل فواجب القاضى غير واجب الحداد وبحسب الرتبة فما يجب على أمير غير مايجب على أحد الرعايا.

أداء الواجب

على الانسان أن يؤدى الواجب إطاعة لوجدانه لا طمعا فى ربح ولا رغبة فى شهرة يحصل عليها ويكون ذلك مثله الاعلى حتى يبلغ به الحد الى أن يسر بخير الناس كما يسر بالخير لنفسه والى ذلك يشير أبو العلاء .

فلا هطلت علىّ ولا بأرضى سحائب ليس تنتظم البلادا

وكثيرا ما يحوجه ذلك الى بذل المجهود ويتطلب منه كثيرا من التضحية وعليه أن يتقبلها مسرورا. أتراك تجد القاضى العدل قد يحكم على قريبه أو صديقه فيألم لذلك . والجندى يجعل حياته فداء وطنه وأمته . وتمسك ذى الرأى برأيه قد يحرمه بعض الفوائد

ولكن ينبغى أن يوازن بين أداء الواجب والتضحية فاذا قنع بخيرية الثانية وجبت عليه لانه عضو من جسم الامة وليس من الخير ان يستأثر باللذة بينا غيره فى تعب ونصب وكلما نبل المقصد كانت التضحية أوجب فانا نرى الامم تضحى

بأعز أبنائها دفاعا عن كيانها وحفظا لاستقلالها ولا تستكثر في سبيل ذلك بذلا

ولا نرى عظيما من عظماء الرجال الا أوذى فى سبيل أداء الواجب وضحي لذلك كثيرا وهذا هو سر عظمتهم كمن يسعى فى نشر مذهب يخالف فيه الرأى العام أو يحارب عدوا يريد اذلال أمته أو تخليص عقائد الدين مما لصق به من الاوهام والخرافات

فهم يكدحون ويجدون ويقاومون كثيرا من العقبات ويتعودون الصبر على المشاق لينالوا أغراضهم . ولن تجد من يخلد للدعة ويستمرئ حلو العيش عظيما

واجب الانسان لنفسه

يجب على الانسان أن يحافظ على صحة جسمه بتنظيم مأكله ومشربه ونظافة ملبسه ومسكنه حتى يكون موافقا للشرائط الصحية مع استعمال الرياضة الجسدية اذ بدون ذلك لا تهنأ له

معيشة ولا تتم له سعادة ولا يكمل له عقل فقد أثر عن بعض الحكماء (العقل السليم فى الجسم السليم)

ثم هو بعد فى احتياج الى مايثقف عقله كما أثر عن كسرى أنو شروان انه قال (القلوب تحتاج الى أقواتها من الحكمة كاحتياج الابدان الى أقواتها من الغذاء) ويحصل من العلوم والمعارف مايؤهله لأن يكون عضوا نافعا فى أمته فيقدم منها ماهو شديد الحاجة الى معرفته اذ العلم أكثر من أن يؤتى على آخره فليأخذ من كل شئ أحسنه — كما هو فى حاجة الى تهذيب خلقه وتجميل طباعه وتحليه بحلى الفضائل وبعده عن النقائص التى تشينه وتثلم شرفه

فاذا كبر زج بنفسه فى معترك الحياة وسعى حثيثا وأفرغ قصارى جهده فى طلب الرزق بما قد أعد من العدة فى صغره من أنواع الحرف والصناعات كزراعة أو تجارة أو طب أو هندسة إلى نحو من هذا . خالعا رداء الكسل والأمانى الكاذبة وراءه ظهريا (إن الامانى والاحلام تضليل)

واجبه للاسرة

نشاهد أن ألم عضو فى الجسم يؤلم الجسم كله فكذلك الاسرة التى تتكون عادة من أبوين وأولاد وذوى قرابتهم يتأثر سائرها بما يصيب أحدها وفيها يعتمد كل فرد على الباقين فكلهم يخدم الفرد والفرد يخدمهم ألا ترى أن الابناء يعتمدون على الآباء فى مآكلهم ومشاربهم وملابسهم ونظافتهم وتعليمهم الى نحو من هذا — كما يتكل الآباء على أولادهم اذا كبروا ومست الى ذلك داعية الحاجة جزاء مابذلوه من الجهد والمشقة فى تكوينهم حتى صاروا رجالا قادرين على الكفاح فى هذه الحياة — وكم يجدون من السعادة اذا شعروا بمحبة الابناء لهم وحنانهم اليهم حتى لكأنهم يسمعون نغمة الموسيقى فى كلمة تدل على اعتراف بالجميل صادرة من الابن لأبيه أو أمه

وليست هذه الحال غير حال الأولاد بعضهم مع بعض فترى الطفل فى الاسرة يؤثر فى الباقين ويتأثر بهم فيشاركهم

في أفراحهم وأحزانهم ويعرف أن القوى يجب أن يعين الضعيف والكبير يجب أن يعين الصغير و كل من فى استطاعته أن يمد يد المعونة الى الباقين فليفعلها . وكذلك الولد سيء الاخلاق فى الاسرة يحرمها كلها سعادتها والاب المقامر أو السكير يضايق الاسرة كلها بما يصرفه من مال واهمال لشؤون بيته . والام الجاهلة يؤثر جهلها فى حال الاسرة فكم من العاهات أو الامراض المزمنة كان نتيجة جهل الام — من كل هذا تعلم مقدار الرابطة الشديدة التى تلزمك ان تفعل الخير جهد ماتستطيع للاسرة حتى تعيش أنت وإياها فى سعادة وسلام

واجبه لوطنه

وطنك بلادك التي ولدت فيها وانتفعت بنباتها وحيوانها ومائها وعشت فوق أرضها وتحت سمائها

بلاد بها نيطت على تمائمى وأول أرض مس جلدى ترابها

تحن اليها اذا نزحت عنها وتهيج أشجانك اذا ذكرت لك وتأنس بالقرب منها وتكون عزيزا بعزتها وتألم لهوانها

حب الوطن ليس غريزيا فى الانسان حسب بل يتعداه الى الحيوان ألا ترى الطيور تحن الى أوكارها والحشرات الى أجحارها — وحبه كامن فى النفوس يظهره مايراه من الحاجة الى دفع خطر داهم عنه وحينئذ يبذل العاملون النفس والنفيس لنصرته والذود عن حريته ومجده

وإنا لنستطيع أن نخدمه على أنحاء شتى أهمها مايلى

(١) أداء كل فرد واجبه — وهذا مظهر يشترك فيه الناس جميعا فيعمل كل عمله سواء أكان فى بيته أم مع أولاده أم مع أصحابه أم مع من يعاملونه

(٢) مساعدة المشروعات النافعة بالمال والعلم والجاه

(٣) الدفاع عنه اذا هوجم أو أريد انتقاص حريته وذلك حال الجند فى الحروب واشتداد الازمات

(٤) حبس النفس على خدمته — وتلك وظيفة الساسة والمصلحين. فالساسة يوجهون جهودهم الى مايرقى شأن البلاد ويجذبون السواد الاعظم الى مافيه خير الوطن. والمصلحون يرون موضع الداء فيعالجونه بالدواء وكثيرا ما

يلقون اضطهادا فى سبيل ذلك ولكنه لن يزيدهم هذا الا تمسكا برأيهم وذودا عنه حتى ينتصر الحق على الباطل

(٥) مؤازة الصناعات القومية وتفضيلها على غيرها وبذا نحافظ على حفظ الثروة فى بلادنا

(٦) بذل الجهد فى تحسين المصنوعات والمنتجات حتى لاتقل عن نظيراتها الاجنبية — وذلك طريق يسلكه الصانع والمنتج

إن الامة فى حاجة الى عمل أفرادها جمعاء مهما كان حقيرا فهى تحتاج الى عمل الكناس فى الشارع بازالته الاقذار والاوساخ كما تحتاج الى عمل الام بتربية بنيها والخادمة بخدمتها والاطباء بمعالجة المرضى ورجال العلم بنشر التعليم والى عمل التاجر والصانع الى غير هؤلاء ممن علا شأنهم وجلّ خطرهم

واجبه للناس اجمعين

دلت التجارب على ان الناس جميعا على تباين لغاتهم

واختلاف اجناسهم وألوانهم يتبادلون المنافع والمصالح فكل أمة تؤثر فى الامم الأخرى وتتأثر بها فى صنائعها وعلومها واخلاقها فأمة غنية بمعادنها وصنائعها بينما اخرى غنية بحاصلاتها الزراعية وهى فى حاجة الى المعادن والعكس بالعكس

الناس للناس من بدو وحاضرة
بعضٌ لبعض وإن لم يشعروا خَدَم

واذا فيجب على الفرد أن يقدم للناس من الخير أقصى مايستطيع جزاء وفاقا ويعاملهم برفق ولا يخاطبهم بغلظة ولا يتكبر عليهم فيستميل نفوسهم ويجتذب قلوبهم ويكثر أصفياؤه ويسعى الكل فى منافعه . وعلى الضد من هذا اذا ساءت أخلاقه نفر منه الناس وأبغضوه واتفقوا على أذاه واحتقاره واهانته

إذا لم تتسع أخلاق قوم تضيق بهم فسيحات البلاد

وقال بعض البلغاء الحسن الخلق من نفسه فى راحة والناس منه فى سلامة . والسيء الخلق الناس منه فى بلاء وهو من نفسه فى عناء

أهم العوامل فى تكوين الخلق (المنزل . المدرسة الاصدقاء . البيئة)

ينبغى الاهتمام باصلاح ميول الناشىء وتربية قوة الشعور بالواجب عليه وتكوين الارادة الصالحة فيه حتى تكون جميع أعماله صالحة وذلك يكون بمراقبة أعماله أثناء الفراغ أو العمل فى المنزل أوفى المدرسة وفى قيامه بالواجبات الاجتماعية والمدنية الى غير ذلك

وحينئذ تتهذب نفسه وتكمل أخلاقه وتشرف عواطفه وتتغلب إرادته على شهواته ويؤدى كل عضو من أعضائه وكل حاسة من حواسه وكل قوة من قواه العقلية وظيفته خير أداء

ولن يصل الى الكمال الخلقى الا اذا كملت قواه الجسميه والعقلية اذ لا يمكنه أن يختار طريق الخير الا اذا علم تمام العلم حقيقته ولا يقدر على تحصيل العلم إلا اذا قوى جسمه وصح بدنه

المنزل

هو أول عامل من عوامل التربية ففيه يكوّن الناشئ كثيرا من العادات ويقف على قدر عظيم من الافكار والآراء التى تدور بين أسرته فيتخلق بأخلاقهم ويشب متشبعا بميولهم ومشاربهم ومنهم يفقه بعض الصلات الاجتماعية بينه وبين بنى الانسان ومالهم عليه من الحقوق وبخاصة طاعة الوالدين وحسن العشرة واحترام سواه ومراعاة حقوقه اذا كان المنزل صالحا

كما يتعلم أضداد هذه الصفات اذا فسد المنزل . لانه فى هذه السن يكون سبيكة تصاغ بحسب ماتهوى وتشتهى

واذا فالبيت الشريف والوضيع كلاهما عظيم الاثر فى تكوين الاخلاق وان اختلف أثراهما

وتأثير المنزل يكون قويا فى طورى الطفولة والشباب ثم يستمر مدى الحياة ولكنه يتناقص تدريجا متى دخل المرء فى طور الحياة الاجتماعية

المدرسة

المدرسة من أكبر العوامل فى تهذيب الاخلاق وغرس الفضائل فى الناشىء كلما سنحت الفرصة وذلك باتباع الوسائل الآتية

(١) تمهد الميول الفطرية والغرائز الطبيعية وتوجيهها الى ما فيه خيره وسعادته بحيث ينفقها فى كل صالح مفيد . وما مثل غرائز الطفل وميوله الا كنهر عظيم من القوة متى امتلأ وفاض احتاج ماؤه الى منفذ يخرج منه فعلى المربى أن يفتح له الطريق الذي يؤدى به الى سبيل الخير والصلاح والا اتخذ له سبيلا آخر قد يصل به الى مكروه تسوء عاقبته ويعظم خطره

(٢) القدوة الخلقية فان الناشىء يحاكى من حوله ويجعلهم المقياس الذى يبنى عليه حكمه بالحسن أو القبح ومن ثم لا توجد الاخلاق الحسنه الا فى مدرسة أسست على دعائم الخير

(٣) تكوين العادات الحسنة كتعويده النظافة والنظام

فى جليل اعماله وحقيرها والمثابرة على العمل والجد والاجتهاد والشرف والامانة والمحافظة على المواعيد الى غير ذلك من صالح العادات التى يكون لها أجل أثر في حياته المستقبلة

فالمدرسة هى التى تراقبه وتشجعه على كل عادة حسنة وتبعده من العادات القبيحة حتى ترسخ فيه وتصير خلقا وطبيعة

ومن كل هذا تعلم صحة ماقاله فرويل أحد علماء الألمان عن مدرسته (غايتنا هى تخريج أبناء متحلين بالشجاعة والرقى الخلقى والأدبى . مستعدين لتضحية النفس والنفيس فى سبيل وطنهم العزيز . تخريج اناس عاملين لسعادة بلادهم . يرقون في العلوم والصنائع . ويطلبون العلم طول حياتهم حبا فى تقدم بلادهم . يحبون الله ورسوله حتى يتيسر لهم الرقى الى ملكوت الله . ويكونون ملائكة فى صورة أناسى)

الاصدقاء

الانسان بفطرته مولع بالتقليد فهو كما يقلد الازياء التى يراها عند من حوله فكذلك يتخلق بأخلاقهم فكثيرا ما رأينا

جبانا زميلا أصبح شجاعا كميا بعاشرة الشجعان وبخيلا شحيحا عاد جوادا سمحا دائم البذل والنوال

فعليك ألا تصاحب الا محمود الاخلاق مرضى الفعال موفور العقل الهادى الى الرشاد من له من دينه رادع ومن أدبه زاجر .

اذا كنت فى قوم فصاحب خيارهم
ولا تصحب الاردى فتردى مع الردى

وتحترس من أهل السوء وتجانب أهل الريب لتكون موفور العرض مصون الكرامة اذ تكون بعيدا عن مواطن الظنة ولا تتسرب اليك عوامل الفساد فقد جاء فى الحديث من حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه

وسبيل سلامتك من قرناء السوء ألا تصافى أحدا وتتخذه لك خليلا الا اذا بلوته واختبرت دخيلة أمره حتى اذا وجدت فيه ضالتك التى تنشدها أقدمت على صحبته والا نأيت عنه وأعرضت

لاتحمدنّ أمرأ حتى تجربه ولا تذمنه من غير تجريب
فحمدك المرء مالم تبله خطأ وذمك المرء بعد الحمد تكذيب

البيئة

يهتم الاخلاق بأحد نوعى البيئة وهو البيئة الاجتماعية التى تشمل النظم التى تحيط بالشخص من منزل ومدرسة ومهنة وحكومة وشعائر دينية ومعتقدات وافكار وعرف ورأى عام ولغة وأدب وفن الى غير ذلك مما أنتجته المدنية

أما البيئة الطبيعيه من هواء وضوء وجو ومعادن الى غير ذلك فلا يهتم بها كثيرا ـ والانسان فى بدواته أكثر تأثرا بالنوع الثانى منهما فاذا رقى شوطا فى المدنية كان للنوع الاول السلطان الاكبر وصار أقدر على تغيير البيئة وتعديلها وفق هواه وللبيئة بقسميها أثران متضادان فهى كما تكون غذاء صالحا للشخص ومن أكبر العوامل فى رقيه كالنبات في المنبت الصالح يربو وينبت من كل زوج بهيج . تكون

عاملا من عوامل الضعف والفناء كالنبات فى المنبت السوء لاتزال به البيئة حتى تضعفه وتميته

فان نشأ الفتى فى بيئة صالحة من منزل شريف ومدرسة راقية ورفقة مؤدبين يحكمه قانون عادل ويدين بدين صحيح تكوّن أحسن تكوين ونبت خير منبت

وان نشأ فى بيئة غير صالحة وفى مجتمع سيء النظام كان شريرا فالاجرام من القتل والسرقة والكسل والتسوّل نتيجة التربية الفاسدة والبيئة الفاسدة . وعلى الجملة فالنظام الاجتماعى والنظم السياسية والافكار العامة تؤثر فى عقول الناشئين وتصوغهم فى قالب خاص ثم يرثها الخلف من السلف

الفضيلة

للفضيلة اطلاقان فى العرف الاخلاقي

(١) الخلق الطيب فالانسان الفاضل هو ذو الخلق الطيب

(٢) العمل الحسن فيقال (فضائل الأعمال) ويعنون بها الاعمال الجليلة التى تحتاج الى كثير من المشقة والعناء

ونستحق المدح والثناء ـ وضدهما الرذيلة

علاقتها بالعادة ـ عرف بعضهم الخلق بأنه عادة الارادة ومعناه أن الارادة اذا اعتادت شيئا سمى بالخلق فما الانسان الا مجموعة عادات فعنايته بتهذيب نفسه وتربية عقله ونحو ذلك كلها عادات تكوّن الشخص وتكون سر نجاحه فى الحياة فمتى تعود الانسان فضيلة ودرب عليها صارت خلقا وربما احتاجت أولا الى روية وفكر ولكن بالمران تصير ملكة وخلقا

اختلاف مفهوم الفضيلة

يختلف مفهوم الفضيلة بحسب الازمنة فقد كان يفهم من كلمة الشجاعة قديما الصبر على تحمل الآلام الجسمية لكنها اليوم تطلق على معنى اعم من ذلك حتى لتشمل تعبير الانسان عن رأيه من غير أن يخشى من حوله. وكذلك العدل قد تغير مفهومه عدة تغيرات بحسب تطور الحالة العقلية والاجتماعية للأمم. كما كان الاحسان الى الافراد بالتصدق عليهم يعد من أسس الفضائل قديما ولكن اليوم رأى أهل

البر إنشاء جمعيات للاحسان يتصدق عليها المحسنون وهى التى تتولي الانفاق على البائسين بعد أن تثبت من حالهم وتعرف مقدار عوزهم . وهى لاتكتفى بالبذل للمحتاج بل توجد العمل لمن لاعمل له وتنشل أولاده من بيئة الشقاء التى هو فيها حتى لاينشئوا نشأته ولايصابوا بمثل امراضه. وهكذا حال كثير من الفضائل قد رقيت وتهذبت برقي المدنية والحضارة

أمهات الفضائل

كثير من الفضائل يمكن أن تندرج فى فضائل أعم منها الا ترى أن القناعة تدخل تحت العفة والأمانة تدخل العدل بل قد تكون الفضيلة ناشئة من فضيلتين فأكثر كالصبر فانه يتولد من الشجاعة والعفة

ويرى سقراط أن أصل الفضائل جميعا هو العلم والمعرفة وبناء علي هذا . فلايستطيع الانسان أن يعمل الخير مالم يعلم

أنه خير . كما أن العلم بخيريته علما تاما يحمله على عمله والعلم بضرره يحمله على تركه ولا أحد يعمل الشر وهو عالم بنتائجه

وقد أبان علماء الاخلاق صحة الشق الاول من هذه النظرية وقالوا إنه لا يكون الانسان فاضلا حتى يعرف الخير ويقصد الى عمله . كما برهنوا على فساد الشق الثانى وقالوا انا كثيرا ما نعلم الخير ونتجنبه ونعلم الشر ونأتيه فالمعرفة وحدها ليست كافية بل لابد أن ينضم اليها ارادة قوية وعزيمة حافزة حتى يعمل وفق مايعلم ـ وعلى رأى سقراط فليس هناك فضيلة الا الحكمة أو المعرفة وما سواها من الشجاعة والعفة والعدل فمظهر من مظاهرها

ويرى أفلاطون أن قوى الانسان متعددة ولكل قوة عمل خاص فاذا اعتدلت القوة نشأت عنها فضيلة . ثم قال إن أصول الفضائل أربعة الحكمة والشجاعة والعفة والعدل لأن فى الانسان ثلاث قوى .القوة العاقلة وهى اذا اعتدلت نشأ عنها فضيلة الحكمة . والقوة الغضبية وهى اذا اعتدلت نشأ عنها الشجاعة . والقوة الشهوانية أو البهيمية وهى اذا

اعتدلت نشأ عنها العفة . وباعتدال هذه الفضائل الثلاث ينشأ العدل فهو لن يكون الا اذا تساندت هذه القوى وأدت وظيفتها باعتدال . ويرى ارسطو أن جماع الفضائل (تسليم زمام الشهوات للعقل ليتولى قيادها) وعليه فللفضيلة عنصران العقل والشهوة فلا بد من شهوة لتضبط فالزهاد الذين يقتلعون الشهوات من جذورها هم في ضلال مبين لأن الفضيلة لن تكون فضيلة الا اذا وجدت وضبطها العقل . ولاجل هذا كان لا بد من تجنب طرفين الأول محاولة استئصال الشهوات والثاني إرخاء العنان لها . فالفضيلة هي الاعتدال بحيث لا تطغى الشهوات على العقل ولا يطغى العقل عليها فتستأصل بتاتا

وعلى رأيه فكل فضيلة وسط بين رذيلتين رذيلتي الافراط والتفريط فالشجاعة وسط بين التهور والجبن . والكرم وسط بين السرف والبخل والعفة وسط بين الفجور والخمود

وليس هناك من قاعدة لذلك بل هو متروك لتقدير العوامل التي تحيط بالشخص فما يعد اعتدالا في حال قد يعد

تطرفا فى آخر .فمثلا مايكون كرمابالنسبة لشخص قديكون إسرافا أو بخلا بالنسبة لاشخاص آخرين

وأيا كان الصواب من هذه الآراء فان الفضائل لاتدخل تحت حصر فلنذكر بعضها على جهة التفصيل

الصدق

هو الاخبار بما تعتقد أنه الحق . بأى واسطة من وسائط الدلالة من قول أو فعل كالاشارة باليد والايماء بالرأس ونحوهما .

والكذب الاخبار بغير ماتعتقد بواحدة من الوسائل السابقة . وقد يكون بالسكوت فمن أجرم جرما ورأى سواه يؤنب على ارتكابه ثم سكت فقد كذب

كما أن من عداد الكذب الاغراق والمبالغة بحيث تجعل السامع يفهم أكثر من الحقيقة كأن تصف شيئا بالضخامة والعظم أو الحقارة والصغر حتى يفهم السامع غير الواقع . كذلك من الكذب أن يحذف المتكلم بعض الحقيقة ويذكر

بعضا آخر حتى يفهم السامع مما ذكر فهما لا يطابق الواقع

أهمية الصدق فى الحياة ـ الصدق أس من أسس المجتمع البشرى لأنه لا بد للمجتمع من التفاهم ليحصل التعاون ولن يتم التفاهم الا بايصال ما فى النفس من الحقائق الى الآخرين . وليس للصدق معنى سوى هذا

ومما يرشدك الى أهمية الصدق أن ماوصل الينا من المعارف وعليه نعتمد فى حياتنا قد جاء بطريق السماع أو القراءة ـ فلو كان كذبا لكان ما بنى عليه من الاعمال ضلالا مبينا وخطأ كبيرا . ولكان اعتمادنا فى الحياة على ما نجربه بانفسنا فقط وهو لا يغني كثيرا ولا قليلا

وهناك أصناف من الكذب وضعت لها اسماء خاصة فمن ذلك .

(١) النفاق وهو أن يظهر الانسان سوى ما يبطن كمن يظهر الصداقة ويبطن العداء

(٢) الملق أو التملق ـ وهو مدح المرء بما ليس فيه ادخالا للسرور على نفسه رجاء نيل منفعة أو دفع مضرة

(٣) خلف الوعد ـ فمن يعد وفى نيته ألا يفى أو فى نيته الوفاء ولكنه أخلف لغير عذر أو لعذر فى استطاعته التغلب عليه فقد كذب وأضر بمن وعد اذ أضاع عليه وقتا أو أوجد عنده آمالا كاذبة

والتزام الصدق فى جميع الحالات شاق عسير يحتاج الى عناء ورياضة نفسية وصبر وشجاعة فكثيرا مايعرض للانسان فى أعماله اليومية دقائق يظن بعض من ينظرون نظرة سطحية أن الكذب لامفر منه لنجاحه فيها وأنه نافع منج له وهذا خطأ عظيم

وقد جاء فى هذا من الحكم والامثال الشئ الكثير فمن ذلك قولهم الكذاب لص لان اللص يسرق مالك والكذاب يسرق عقلك . وقال بعض الادباء لاسيف كالحق ولا عون كالصدق

وقال الشاعر .

وما شيء اذا فكرت فيه بأذهب للمروءة والجمال
من الكذب الذى لاخير فيه وأبعد بالبهاء من الرجال

العدل

هذه الكلمة ذات شقين عدل يتصف به الفرد وعدل يتصف به المجتمع . فعدل الفرد يكون باعطاء كل ذى حق حقه فاذا أخذ الانسان حقه لا أكثر ولا أقل كان عادلا فالبائع الذى يكيل للمشترى أقل مما اتفقا عليه ظالم . والذى يسرق مال غيره ويمنعه حقه ظالم

ومما يحمل على الظلم التحيز بالميل لأحد المتساويين ميلا يجعله يعطيه أكثر من حقه وينقص الآخر حقه فمثلا يجب على القاضى ألا يميز بين غنى وفقير ولا بين ذى جاه ومالیس له جاه اذ واجبه إنما هو تطبيق القانون على جميع الناس بالسوية.

ومن دواعى التحيز الحب أو المنفعة الشخصية أو المظهر الخارجى كفصاحة قول وأدب فى الحديث الى نحو من هذا .

فيجب ألا يتغلب داعى الهوى أو الميل على الانسان حتى يصده عن سلوك طريق الحق كما أن مما يساعد على العدل عدم التحيز . واتساع النظر بفهم الامور على وجهها

اللائق بها فالقاضى يجب أن ينظر عند الفصل فى خصومة الى وجهة نظر كل فريق حتى يتبين له الرشد من الغى . والى الحكم على العمل لا من جهة نظره الخارجى إذ قد يكون فى الظاهر مما يستفز الغضب بل من جهة الباعث عليه فقد يكون شريفا ألا ترى أن من يقسو على ابنه قصد تهذيبه وتخلقه بفاضل الاخلاق لايكون قد أتى أمرا إدّا

وعدل المجتمع أن يكون له من النظم والقوانين مايساعد كل فرد على أن يرقى نفسه بقدر كفاءته واستعداده . فلن تكون الحكومة عادلة الا إذا استطاعت كل طائفة أن تحصل على مافيه خيرها ووسائل رقيها فطائفة التجار تحتاج الى سبل مواصلات منظمة من برد وسكك حديدية ومسرة وهكذا . وطائفة النشء تحتاج الى مدارس لتثقيفها . وطائفة ذوى الخصومات تحتاج الى قضاة وقوانين تحفظ الحقوق وتزجر أرباب الجرائم . فالمجتمع الذى يسد كل هذه الحاجات يسمى مجتمعا عادلا . وإن لم يقم بها سمى ظالما

وعلى كل فرد فى المجتمع أن يقوم بقسط فى إيجاد هذا العدل

فاذا كانت بلد فى حاجة الى إيجاد الكهرباء بها فعلى الصحيفيين والخطباء والكتاب أن يبينوا للناس مزايا وجودها فى ذلك . وعلى الاغنياء أن يبذلوا المال ثم يستردوه منجما وعلى كل ذى جاه أن يساعد بقدر مايستطيع . وعلى من بيدهم انجازه أن ينجزوه فان لم يعمل كلّ ماعليه فقد أثمت الامة جمعاء اذ الضرر يعود عليها كلها ألا ترى أن العضو فى الجسم إذ لم يقم بوظيفته عاد ذلك بالوبال على الجسم كله .

ولما كانت الحكومة هى التى تقوم بشئون المجتمع فواجبها أن تكمل العدل فيه وتعطى كل فرد منه القسط المناسب له من الخير وهذا معنى مانقل عن أفلاطون (إن خير حكومة هى التى تضع كل فرد من الامة فى خير مكان يليق به ويستطيع أن يظهر مواهبه ثم تمده بما يحتاج اليه لأداء ماعهد اليه)

وقد دلت التجارب على أن الحكومة مهما عدلت فمن البعيد جدا أن تقوم بذلك الواجب حق القيام

(تنبيه) كثيرا مايقولون (الرحمة فوق العدل) وهذه المقالة إنما تكون حقا اذا كان من يفعل الرحمة هو الذى يملك

حق العدل ويتنزل عن حقه فى العدل رحمة بغيره فدائن له على مدينه دين استحق أداؤه ولكن وجده معسرا أو وجده محتاجا الى المال لاداء بعض الاعمال الضرورية فمن الرحمة النظرة حتى يوسر أو يسهل عليه أداء الحق

ولكنها تكون خطأ فى كثير من الاحايين فسجون سجن ظلما ويراد العفو عنه ليس من الصواب أن يقال ذلك لان الرحمة والعدل متفقان على أن يسجن وكذلك لص قبض عليه وهو ينشل ساعة فأخذ يستطعف الجمهور ويعول ويبكى ليطلقوه فنسمع منهم هذه الجملة وهذا خطأ أيضا لان عقاب السارق من حق الامة لا من حق بعض الافراد

الاعتزال — العفة — ضبط النفس

هو أن يعتدل الميل الى اللذات فيخضع لحكم العقل والدين وهو سط بين رذيلتين هما الشره وخمود الميل فالشره هو الانهماك فى اللذات والسلوك بها طريقا لا ينبغى . والخمود هو الاعراض عن اللذات الجميلة النفسية والجسمية التى يحتاج

اليها البدن والنفس ويبيحها الشرع والعقل فلا يسمى الشخص عفيفا الا اذا اعتدل فى لذاته الجسمية من مآكل وملابس ونحوها . واعتدل فى انفعالاته فلم يهج ولم يغضب لأقل الدواعى ولم يفرط فى الحزن اذا فقد عزيزا أو نزح عن وطنه الى امثال هذا وبذلك يكون الانسان سيد نفسه لا عبد شهواته توجهه كما تشاء . وكل الرذائل تجد مرجعها الى عدم القدرة على ضبط النفس ألا ترى الشراهة والطمع والدعارة والغضب والاسراف والادمان والسخط والثرثرة والادمان انما هى تماد فى هذه الخلال واندفاع وراء العواطف والاهواء لا وراء حكم العقل

وقد انقسم الناس فى الحياة أقساما فمنهم من فرط فى الحصول على اللذات وزهد فى الدنيا وحجته أن شهوات النفس لانهاية لها فاذا حصلت على العاجل منها طلبت الآجل فيصير الانسان أسير شهوات لا تنقضى وعبد هوى لا ينتهى وأمثال هؤلاء يرون أن أرقى أنواع الحياة الاخلاقية هو ماحصل بمحاربة الشهوات فلا يتزوجون ولا يأكلون اللحوم ويعتزلون الناس جهدهم ولا يمكنون النفس من مأكل أنيق

أو ملبس جميل بل قد يبالغ بعضهم فيعذب نفسه بالقيام في الشمس أشد ساعات الحر أو يتمرغ على الرخام في الشتاء ويرى أن ذلك يقربه الى الله

وقد ضل أمثال هذا ضلالا مبينا فان الله شرع الشرائع لسعادة الناس فمن عمل بها سعد في الدنيا والأخرى ومن ظن أن يرضى الله بتعذيب نفسه فقد أخطأ فماذا ينال الله والناس ممن انقطع للعبادة وزهد في الحياة . يرشد لذلك أن رجلا مُدح عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه قوام صوام لا ينقطع عن العبادة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يقوم بشأنه فقالوا كلنا فقال (كلكم خير منه)

ومن الناس من أفرط في اللذات وأطلق لنفسه العنان ورأى أنه إنما خلق في هذه الحياة ليتنعم ولم يعطِ العقل الا ليبحث عما يوصله الى اللذات فهو ينهمك في الحصول عليها قدر مايستطيع

وما درى هؤلاء أن هذا ضار بالفرد وبالمجموع اذ لو فتحنا الباب على مصراعيه لكل إنسان ما انتظم شأن المجتمع

لان الشهوات متعارضة واللذات متباينة فيضطرب الامر وتضرب الفوضى أطنابها فى المجتمع . كما أن قوى الفرد تنهك ويصبح عاجزا عن العمل فى ميدان الحياة . من كل هذا تعلم أن كلا الطرفين ذميم

فخير طريق فى الحياة أن ينيل الانسان نفسه لذاتها الطيبة ويعطيها ماتشتهى بشرط ألا تخرج عن حدود العقل والشرع اذ هذا أدعى الى نشاطها وأقرب الى طبيعتها يدل لذلك قوله تعالى لنبيه (ولا تنس نصيبك من الدنيا) وقوله (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق)

وطريق ذلك أن تضبط شهواتك وتجعلها خاضعة لحكم العقل ففى ذلك سعادتك وسعادة المجتمع

ومن أهم أنواع ضبط النفس مايلى

( ) الاسترسال فى الشهوات الجسدية إذ هو شر مايفسد على الانسان حياته ويضعف روحانيته ويسوقه الى أسوإ طريق . ومن خير الوسائل لذلك أن تتباعد عما يغريك ويحرضك على العمل فلا تجالس المستهترين الذين لا يتحرجون

من قول الهجر والحض عليه ولا تفش أماكن اللهو غير المحتشم لاسيما فى سن الفتوة بين الخامسة عشر والخامسة والعشرين حين تكون الشهوات نامية وأسباب الشرور موفورة . فيجب أن يحاط الفتى برفقة مؤدبة وبيئة صالحة ويعنى بما يوضع فى يده من الكتب وما يشاهد من التمثيل وما يغشى من المجتمعات . وأكثر من ساءت حالهم وفسدت أخلاقهم كان فى هذا الطور

(٢) الاسترسال فى الفكر فلا نجعله يهيم فى كل واد ويجول فى مناحى شتى إذ الفكر إذا حام حول الشرور يوشك أن يقع فيها كما تقدم ذلك

(٣) عدم الاسترسال فى الانقباض والسخط فان ذلك يجعل الحياة ماء أجاجا ويكون صفوها كدرا لا خير فيه حتى لقد يخيل الى البعض أن الحياة ما هى إلا سلسلة آلام وشرور وأكثر آلامها فى لذاتها .

وأكثر ما يكون هذا عند من تضعف صحتهم وتسوء أعصابهم أو تتوالى عليهم كوارث الزمان فتظلم الدنيا فى أعينهم

ولا يرون فيها الامايؤلم فأحب الشعر اليهم شعر أبى العتاهية وأبى العلاء وخير نغمات الموسيقى مايثير كامن الاشجان ولواعج الحزن

وليس من شك فى أن هؤلاء قد قصرت مشاعرهم عن درك مافى العالم من لذات فمثلهم كمثل المحموم الذى يدرك طعم العسل مرا - إذ لايخفى أن الدنيا قد ملئت بما يسر وما يؤلم . ولولا ما فى نظم المجتمع من فساد وما فى التربية من جَنَف لكان أكثر الناس سعداء

(٤) ضبط النفس عن الغضب . فسريع الغضب يخرج عن جادة الاعتدال لكلمة صغيرة تقال له أو لتافة الاسباب

ولكن ليس كل الغضب مذموما هناك من الاحوال مايمدح فيه ألا تراك وقد نظرت شخصا يعذب حيوانا أو صغيرا لم يجن جناية أو ضعيفا لا يستحق أن يعذب ففى الحق عليك إذا أن تغضب . كما أن فى الحق أن تغضب اذا أهنت فى شرفك أو فى عرضك لتدرأ عن نفسك الظلم

ولاخير فى حلم إذا لم يكن له بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

ولا خير في جهل اذا لم يكن له حليم اذا ما أورد الامر أصدرا

وقال عمرو بن العاص أكرموا سفهاءكم فانهم يقونكم العار والشنار. ولكن اذا قيست هذه الحالات بغيرها كانت قليلة ومن ثم عد ضبط النفس فضيلة وعد الغضب رذيلة

ومن أهم دواعي الغضب الاعجاب بالنفس والصلف فاذا سمع كلمة خيل اليه أنها احتقار ونيل من قدره حتى لقد يستسلم لغضبه فلا يعقل مايفعل ولا يفقه مايقول ويظن أنه بذلك قد حافظ على كرامته وأبقى على عرضه وهو في الحقيقة قد طاش وحمق. والانسان حين الغضب يكون حاكما يميل مع الهوى ويبالغ في الاشياء فلا يزنها بميزان الحكمة والاعتدال فهو كمن يضع على عينيه منظارا مكبرا يريه الاشياء فوق حجمها الطبيعي ويشوه محاسنها فلا يرى فيها الا مايغضبه ومن ثم تراه يحكم أحكاما قاسية حتى على أخلص الناس وأصدقهم له

فعليه أن يتريث في أحكامه ويعمل الروية والفكرة ويسائل نفسه ويراجعها قبل أن يبت في أمره فلعله يكون

لما قد عمله فلان أو قاله محمل حسن أو فعل بنية حسنة واخلاص او لعلى أكون قد غاليت فى الامر ـ كما يراجع حسنات المسيء فلعل هذه الهفوة ليست بشيء فى جانب ماقدمه من حسنات وقصارى القول أن فى ضبط النفس حفظا للصحة وسعادة وحرية وطمأنينة فما مثل ضابط نفسه الا مثل الربان الماهر يوجه سفينته أنى أراد وكيف شاء . ومن لم يضبطها كان كراكب الفرس الجموح لا يملك قيادهولا يصرفه على حسب هواه بل يميل فى كل اتجاه شاء دون أن يكون لقائده عليه سلطان

الخلق واسطة تهذيبه (١)

الخلق حال للنفس تدعوها الى أفعالها دون فكر وروية فشخص يرى بائسا فقيرا فيسرع لاول وهلة الى مساعدته بدون أن يتأمل أو يتروى وآخر يرى شخصا قد أحدق به الخطر من كل فج فيتقدم مسرعا رابط الجأش لانقاذه .

---

(١) أسلفنا القول فى هذ الموضوع بصورة موجزة فرأينا أن نعيده هنا بالتفصيل

وثالث تبدر بادرة من صديقه ولم يكن لها متعمدا فيهيج ويغضب دون أن يتريث وينتظر ليعلم محمل كلام صديقه وماذا يريد . فالاول من أولئك دعاه داعى الندى والكرم ليساعد ذلك الفقير فهو جواد كريم . والثانى لبى نداء الضمير وأسرع الى انقاذ سواه من الاذى فهو شجاع والثالث لاقل بادرة اهتاج وغضب فكان خلق الغضب سجية وطبيعة له وهذه الحال قسمان

(١) طبعية من أصل التكوين الخلقى كمن يجبن من أيسر الاشياء أو يضحك ضحكا خارجا عن حد الاعتدال من أدنى شىء يعجبه

(٢) مستفادة بالعادة والتدرب . وربما احتاجت فى أوائلها الى الفكر والروية ولكن بالاستمرار تصير سجية وخلقا

إمكان تهذيبه — يرى بعض علماء الاخلاق أن الانسان بفطرته خيّر . ويرى آخرون ضد هذ وأنه شرير بطبيعته بدون تربية ولا تعليم . وعلى هذين فلا داعى الى التهذيب

والتربية لانه ان كان خيرا فلا داعى الى التهذيب وان كان شريرا فلا فائدة فى محاولة تطهيره وتخليصه من أدرانه وبطلانها بين بالبداهة للاسباب الآتية

(١) ليس هناك حينئذ حاجة الى شرع الشرائع وتقرير ما بها من الاحكام

(٢) لا فائدة فى التكليف بالاعمال

(٣) الترغيب والترهيب عبث لا فائدة فيه

(٤) حكمة الله أجل من أن يخصص للجنة قوما وللنار آخرين ويربط استحقاق الاولى بعمل والثانية بعمل حين أن الانسان ليس أهلا لاحدى الجهتين

(٥) أرشدنا صنع الله بارسال رسله للناس لهديهم الى الرشاد وبعدهم عن الغواية الى أن الانسان قد يكون شاطرا عيّارا ثم يصلح حاله ويهون شره وينقلب الى خيّر بار

(٦) المشاهدة والنظر فى أحوال الحاضرين وقراءة سير الغابرين

ويرى آخرون أن فى الانسان من يوجد خيّرا وفيه من

يوجد شريرا . وهؤلاء انقسموا فرقتين فرقة تقول بأن الانسان على ماوجد ولا يمكن تحويله بحال . ويبطل هذا الرأى بما أبطلنا به رأى الاولين . وفرقة ثانية تقول بامكان التحويل فينقلب الخير شريرا والشرير خيرا بالتربية والتهذيب وهذا مذهب قريب من الصواب لانا نشاهد أن ولدين يولدان من بطن واحد ويختلف ميلهما الى الخير والشر ثم بالتربية يخف ضرر الشرير وبالتهذيب يعرف الخيّر طريق الخير ويزيد فيه . وإن فعل الخيّر الشر جاء مطلقا غير مبالغ فيه . وان جاء الخير من الشرير وقع بتكلف أو تقليد أو ترغيب أو ترهيب

والرأى الجدير بالنظر الذى يؤيده البرهان ويساعده الطبع ويرشد اليه العقل أن الانسان بفطرته سبيكة قابلة للتشكل بكل شكل يراد منها فهى قابلة للخير والشر على السواء . فأى منهما قابله صادف منه قلبا خاليا فتمكن منه . وبالتربية يكون اما خيرا أوشريرا ـ وكيف ينكر هذا ونحن نشاهد أن الفرس الجموح ينتقل الى السلاسة والانقياد

بالرياضة والبازى يتحول من الاستيحاش الى الانس والانسان أولى منه بذلك

وعلى هذا الرأى سار علماء الاخلاق وبينوا أنواع التربية والتهذيب وأقاموا الحجج وضربوا الامثال وضمنوها كتبهم وجعلوها هاديا ومرشدا للناس

مقياس الخير والشر

أسلفت لك أن الناس قسمان خيّر وشرير فما مقياس الخير والشر . جرت العادة أن كل أمة تجعل لها مقياسا للاطوال تعرف به قياس الاشياء فاذا اردنا ان نعرف مقياس حديقة لجأنا الى القصبة او المتر او نحوهما فنعرف بذلك مساحتها .

فما المقياس الذى نعرف به الخير والشر اذ كثيرا ما نرى الناس تتباين أحكامهم على الشيء فبعضهم يرى انه خير بينما الثانى يحكم عليه بأنه شر بل قد يختلف نظر الانسان الى الشيء فيحكم عليه بحكمين متناقضين فى زمنين مختلفين فقد

يرى فيه انه خير ثم فى زمن تال يرى انه شر فما مصدر هذا الاختلاف

ولبيان هذا ذكر الاخلاقيون مقاييس مختلفة نتعرف بها الخير والشر أشهرها

(١) العرف العام ـ ذلك ان كل أمة لها أشياء تعارفتها من أزمان طويلة وترى الخير فى اتباعها وتؤدب أطفالها على شاكلتها حتى لقد تجعلها فى مرتبة التقديس وتعد من خرج من سننها قد باء باثم عظيم

فالامة تأتمر بأوامر هذا العرف وتنتهى عن نواهيه بعدة طرق واساليب

(١) اما بما ترويه من اساطير وخرافات تدعى بها ان المردة والشياطين تنتقم ممن يخالفه والملائكة الابرار تكافئ من انقاد لحكمه (ب) واما بتحبيذ الرأى العام ومدحه لمن اتبع العرف وسخريته ممن خالفه فانك ترى عادات الامة من مآكل ومشارب وملابس وتقاليد مختلفة ـ مكينة حصينة بوساطة استحسان الناس اياها وهزؤهم بمن يخالفونها (ج) ما يشعر

من الشعائر ويقام فى المواسم من حفل وموسيقى ونحوهما مما يحمل الناس على الانقياد بحكم العاطفة الى اتباع ذلك السبيل دون غيره كما يشاهد فى الافراح والمآتم وزيارة القبور الى نحو من هذا

وقد كان حكم العرف قديما مطاعا لا يخالف وأمره مبرما لا ينقض لاسيما لدى العامة فترى أحد أفراد الاسرة إذا مرض لا يستحضر له الطبيب وليس فى ذلك من بأس لانه لا يجد منتقدا من بنى قومه وإذا مات أنفق باهظ النفقات فى عمل المأتم وما شاكله لانه يرى فى مخالفة هذا عارا كل العار

ولكن قد استبان لأولى النهى أن العرف لا يصلح أن يكون مقياسا فبعض أحكامه غير معقول وبعضه ضار أو لا ترى الى وأد البنات فى الجاهلية لدى العرب فانه لم يكن فيه شىء من الغضاضة فلما جاء الاسلام أبان لهم عظيم جرمهم وكبير خطئهم . وهكذا كان الحال عند الرومان فلم يكن هناك من بأس على الاب فى أماتة أبنائه أو إحيائهم . إلى أنه لو سار الناس على سنن العرف ماتقدموا قيد شبر لانه إذا

لم يكن لديهم من الشجاعة مايخالفون به العرف وينفرون من القديم ويعرضون أنفسهم للاذى حتى يأخذ الجديد فى الانتشار لبقى الناس على حال واحدة أبد الدهر — على أنه مهما كان للعرف من مساو فله كثير من الفوائد فانا نرى كثيرا من الناس امتنعوا عن الموبقات من سرقة وشرب خمور خوفا من نقد الناس إياهم

(٢) مذهب السعادة — وأصحابه يرون أن السعادة وهى اللذة والخلو من الالم هو غاية الانسان فالعمل يكون خيرا بمقدار مافيه من لذة وشرا بقدر مافيه من الالم والذين ذهبوا هذا المذهب تفرقوا فرقتين

(١) مذهب السعادة الفردية — ومعتنقوه يرون أن من واجب الانسان أن يبحث عن لذاته وسعادته ويعمل مايوصله الى ذلك وما ينتهى به الى تلك الغاية يكون خيرا وما يبعده عنها يكون شرا . وإذا تردد شخص فى أمر ما أيتركه أم يعمله فليفحص لذاته وآلامه و يوازن بينهما فما ترجح لديه لذاته فخير وما ترجح آلامه فشر وما يتساوى

فيه الامران كان مخيرا فيه فالدواء المر البشع يسبب ألما لكنه يذهب ألما أكبر منه وهو ألم المرض فيكون خيرا — وقد نقد هذا الرأى بأنه يجعل الناس أنانيين لاينظرون إلا لأنفسهم مات الناس أو عاشوا . وبأنه يكون من الغلط عد الاحسان فضيلة مع أن الناس مجمعون على ذلك . وبأنه يلزمه احتقار من راحوا ضحية منفعة الناس وفائدتهم واحترام من ضحى بسعادة الناس لمصلحته وليس هناك من قائل بذلك

(ـ) مذهب السعادة العامة ـ يرى من يدينون به أن سعادة المجتمع . هى التى يجب أن تكون مطمح النظر لان الفضائل ماعدت كذلك الا لانها تنتج للناس لذة أكثر مما تنتج ألما ولو آلمت بعض الافراد وبضدها الرذائل فمثلا الشجاعة فضيلة لانها تزيد سعادة المجتمع اذ أننا نحتاج الى من يدافع عن الوطن ممن يغير عليه وندافع عن أنفسنا وعن أعراضنا وفى هذا سعادة للجميع ولو راح العامل ضحية عمله ورشوة القاضى رذيلة لانها تجعله يطلق سراح المجرمين فيعيثون فى الارض فسادا فتكثر المظالم وتضيع الحقوق وفى هذا ضرر

للمجتمع وإن انتفع القاضى بتلك الرشوة — وقد عيب هذا الرأى بأن فيه حطا من كرامة الانسان اذ البحث عن اللذات والفرار من الآلام فقط أليق بالحيوان الاعجم منه بالانسان وبأن هـذا المقياس ليس محدودا وفيه مجال كثير للخلاف باختلاف الاشخاص اذقد يرى أحد فى عمل لذة كبيرة ويرى آخر فيه دونها فقد يسمع أحد صوت الموسيقى ويطرب منه طربا عظيما يضحكه أو يبكيه حين أنا نجد آخر لا ينفعل ولا يتأثر بهذا الصوت بتاتا فكيف اذا نجعل اللذة مقياسا ونحكم على الشىء بمقدارها ونقول هـذا خير أو شر

ومع مافى هذا المذهب من النقد فانه أكثر المذاهب انتشارا فى العصر الحاضر وله أثر كبير فى تنبيه العقول الى البحث عن سعادة المجتمع بقدر ماتستطيع وعليه بنى التشريع فقد لاحظ المشرعون خير الناس لاخير فرد مخصوص فما يسبب ألما للمجتمع عدوه جرائم وفرضوا فيه العقوبات المختلفة

(٣) مذهب اللقانة (الفراسة وسرعة الفهم) أصحابه يرون أن فى الانسان قوة غريزية بها يميز بين الخير والشر

عندالنظرة الأولى. وباختلاف البيئات والعصور قد تختلف هذه القوة ـ فعند النظر الى أمر مايجد لديه إلهاما يعرفه حقيقته فيحكم عليه بأنه خير أو شر ومن ثم ترى الناس قد اتفقوا على عد الصدق والشجاعة والكرم وأمثالها فضائل وعد أضدادها رذائل ـ وبناء على هذا الرأى فالفضائل فضائل فى كل حين وليست تابعة لغاية اذا وصلنا اليها كانت خيرا والا كانت شرا كما فى الرأيين السابقين . وبأن الفضائل من الأمور البديهية التي لاتحتاج الى برهان فمن المحال أن نرى يوما ما أن ضدها خير وأنها شر . وبأنه يجب أن يكون الانسان أرقى من أن يسير وراء اللذة والألم بل يجب أن نعمل الخير لانه خير وان ضحينا باللذة والسعادة وممن ذهب هذا المذهب طائفة من الفلاسفة القدماء يسمون (الرواقيين) وهم أتباع زينون الفيلسوف اليونانى وقد كان يعلم أصحابه فى رواق مزخرف بأثينا . وهؤلاء لايجعلون همهم أن يكونوا أغنياء أومتلذذين بل المهم أن يكونوا حكماء أفاضل فى أى حال كانوا من فقر أو غنى ـ وقد عيب هذا الرأى بأن الناس قد يختلفون

فى الحكم على الأشياء اختلافا عظيما حتى لقد يصل الخلاف الى البديهيات فقد كانوا فى اسبارطه يعدون السرقة عملا شريفا . كما يعدون القتل فى (داهومي) واجبا من الواجبات فكيف حينئذ يقال إن الغريزة كافية فى معرفة الخير والشر

الاذواق

هى ميول الى استحسان بعض الاعمال واستهجان بعض آخر ومنشؤها عادات درج عليها الناس جيلا بعد جيل .

وهذه الميول تختلف اختلافا عظيما باختلاف الامم والأزمان فهى فى الشرق غيرها فى الغرب بل هى فى أمة غيرها فى أخرى تتاخمها وتلاصقها

تكوينها

تتكون الاذواق بالمواضعة والاصطلاح فما يستحسنه كبراء أمة وذوو الزعامة وقادة الرأى فيها يقلدهم فيه دهماؤهما